المتنبي والنجومية

خاض المتنبي حرب النجوم في عالم البيان، ورفض الاستسلام لخصومه وأوصى محبيه أن لا يرضوا بغير النجومية:

إذا غامَرتَ في شرفٍ مروم فلا تقنعْ بما دَون النجومِ

فهو حاذق في معرفة طرق الصدارة، متعب نفسه وغيره في مباراة التحدي وإثبات الذات:

وإذا كانتِ النفوسُ كباراً تعبتْ في مرادها الأجسامُ

ولا يرضيه الرضا بالأقل، والقناعة ببعض المجد، بل لابد من المجد كله، والكمال أجمعه:

ولم أرَ في عيوبِ الناسِ شيئًا كنقصِ القادرين على التَّمامِ

وهو يفور غضبًا، ويثور بركانًا على من يريد تحطيمه، والتقليل من شأنه، حتى إنه مر ببعض حساده في الطريق، فألقى عليهم هذه القذيفة:

لو اسْتطعتُ ركبتُ الناسَ كلَّهمُ إلى سعيدِ بن عبدالله بُعْرانا

والويل كل الويل لمن أراد الانتقاص من هذا الأعجوبة، إنه سوف يبوء بإثمه، ويحسو كأس ندمه، ولو كان ملكًا مطاعًا، فهو يجر كافور ملك مصر من على كرسيه بهذه القذيفة:

لا تشترِ العبدَ إلا والعَصَا معه إن العبيدَ لأنجاسٌ مناكيدُ

وفي سبيل تحقيق نجوميته فكل شاعر سواه، فإنما هو شويعر حقير صغير، وهو وحده الخطير الشهير الكبير:

أفي كلِّ يومٍ تحتَ ضِبْني شويعرٌ ضعيفٌ يقاويني قصيرٌ يطاولُ

فالكريم الذي لا يحتفل بالمتنبي، ولا يكرم مثواه ويحسن وفادته، لئيم خسيس:

جودُ الرجالِ من الأيدي وجودهمُ من اللسانِ فلا كانوا ولا الجودُ

والذي لا يستمع إليه غر بليد، يقول في أحد هؤلاء الأغبياء:

صَغُرتَ عن المديحِ فقلتَ أُهْجَى كأنَّك ما صَغُرتَ عن الهجاءِ

وهو عند نفسه نادر المثال، لا يتكرر شبيه له، وهو غريب كما يرى في نبوغه وفصاحته:

أنا في أُمَّةٍ تَداراكَها اللّـ ـهُ غريبٌ كصالحٍ في ثمودِ

وهو معدن آخر كما يرى، وله طينة أخرى، فهو كما يعتقد، متفرد متميز:

وحيدٌ من الخلانِ في كل بلدةٍ إذا عظمُ المطلوبُ قلَّ المساعدُ

وكأني به يرى سواه أقل منه رتبة، وأقصر قامة، وأصغر قدرًا:

وربما أُشهدُ الطعامُ معي من لا يساوي الخبز الذي أَكَلَهْ

ولا ينسى أن يذكر أصحابه بأنه نجم:

وإنِّي لنجمٌ تهتدي صُحْبتي به إذا حالَ من دونِ النُّجومِ سحابُ

ويبشرك أن نفسه وثابة شابة، وبشاشة جيّاشة:

وفي الجسمِ نفسٌ لا تشيبُ بشيبه ولو أنَّ ما في الوجه منه حِرابُ

فهو شاب الهمة، فتي العزيمة، متوقد القلب، لا يكل ولا يمل، حتى يبلغ مناه من النجومية، والتحليق عاليًا في سماء النجاح. فلديه من الطموح إلى نيل مطالبه، وإدراك مقاصده، ما أتعب جسمه، وأنهك روحه، وعرضه للمخاطرة، وحمله على ركوب المهالك، وصح فيه قوله من قصيدة له عامرة:

وأتعبُ خلقِ الله من زاد همّه وقصرَ عما تشتهي النفسُ وجْدُهُ

وفي الناسِ من يرضى بميسورِ عيشِه ومركوبِه رجلاه والثوبُ جلدُهُ

ولكنّ قلبًا بين جنبيَّ مَا لَهُ مدًى ينتهي بي في مراد أحدُّهُ

يرى جسمَه يُكْسى شُفوفًا تَربُّه فيختارُ أن يُكْسى دروعًا تهدّهُ